١١
كليوباترا

من هى كليوباترا..؟

هل هى صاحبة الليالى الحسان، كما يصفها، عبد الوهاب؟

أو هى صوفيا لورين كما نراها فى الفيلم المُبهر، الذى عرض فى القاهرة ؟

أو هى هذه الصورة الغامضة التى نعرفها على علبة السجائر المصرية؟

وتزداد الحيرة..

هل هى كما يراها أعداؤها: الفاتنة، السكيرة؟

أو هل هى كما يراها المؤرخون: الذكية الواعية؟

عشرات الصفات أصبحنا نتعرف عليها كلما تنامى إلينا هذا الاسم التاريخى، الساحرة: كليوباترا، حتى لا يمكن لاثنين، قط، أن يتفقا على من هى هذه المرأة/ الملكة.. كليوباترا.

ويزيد من هذا التخبط ما تنقله لنا العديد من المراجع الأجنبية القديمة منها والحديثة من ضراوة كليوباترا وسلوكها المُلتوى، خاصة؛ وأن هذه المرأة المصرية عندهم حاولت أن تنزع سيادة مصر من أنياب حكام العالم القديم، الرومان، لسنوات طويلة.

كليوباترا تحولت إلى أسطورة

والأسطورة عبقت بالغموض والسكوت..

لا نعرف عنها شيئا منذ ولدت حتى رحلت

لا نعرف عنها شيئا منذ أبحرت فى نهر الحياة

ولا نعرف عنها شيئا منذ انتحرت وتركت كل شىء

وبين الإبحار والمصب تظل كليوباترا: امرأة غامضة

فلنحاول، نحن، أيضًا أن نقترب من هذا العالم الشرقى القديم للملكة، حاكمة مصر لسنوات طويلة قبل ميلاد المسيح بثلث قرن على وجه التقريب، حاكمة مصر التى ارغمتنا، نحن المؤرخين، على أن نتعامل معها بتقدير واحترام شديدين .. من هى كليوباترا؟

لنصمت ونقترب من عالم التاريخ، قبل أن نعاود اقترابنا من الحاضر..

أنف كليوباترا :

إن أشـهر التفسـيرات التى لا تخلو من معنى رأى الفيلسوف الفرنسى المعروف باسكال، ماذا قال باسكال، قال بالحرف فى كتابه (أفكار):

لو أن أنف كليوباترا كان أقصر قليلا؛ لتغير وجه العالم بأسره.

ومعنى هذا، أن باسكال، والغرب طبعًا، مازال يرى فى كليوباترا، صورة امرأة جميلة، فاتنة، سـاحرة، ولأنها كذلك؛ فإنها اسـتخدمت كل أسلحة المرأة (الذرية) لتستحوذ على قلوب ملوك الرومان.

مـازال الغـرب يرى كليوباترا كما يريد أن يراها، مدام دى بومبادور (كما رأى شـهرزاد فى القرن الثامن عشر).. وهى امرأة اختلط فيها السحر بالأنوثة.

وأضيف إلى هذا كله قدر كبير من العهر والفجور.. فلو كان أنفها أقصر – أى لو كانت أقل جمالاً وأنوثة ومكرًا – لتغير التاريخ.

وهذا يعنى أننا لا نرى غير نصف الكوب الفارغ فقط .

لا نرى فى هذه المرأة غير أنفها المتسق مع جمالها المتفق مع أنوثتها، ونغفل، بالتبعية، العقل والإرادة والشخصية والذكاء.

إن كليوباتـرا هنا لا تزيد على تمثال (أفروديت) – هكذا كانوا يرونها فى عصرها من أعدائها (مثل المؤرخ بلوتارك) – ولأن التمثال يظل ثابتًا، فإن جماله يظل حبيس هذا الجبس أو الرخام دون أن يغادره..

ويظل السؤال قائمًا:

وهل هذه هى كليوباترا.. بالفعل؟

والواقع أن كليوباترا كانت فاتنة، بالقطع، لكنها كانت تحمل إلى جانب الفتنة ثقافة عالية، فهـى ابنـة الإغريق القدامى، وابنة المصرى الحقيقى.. كما كانـت تحمل وعيًا علميًا؛ إذ كانت صديقة لعلماء عصرها، وكانت تحمل قدرًا كبيرًا من الفطنة والذكاء، فضلا عن الطموح السياسى الجارف..

هذه هى..

لقد ولدت فى مصر وعاشـت فيها سـنوات طويلة من أسـرة عرفت مصر منذ أكثر من قرون ثلاثة، ومن هنا، كانت خلاصة الشخصية الشرقية الفرعونية الذكية عرفت علوم المعابد، وفنون الإغريق، وفطنة المثقفين، وذكاء الكتاب، وجاذبية المرأة..

هذا كله، لعب دورًا كبيرًا فى صنع التاريخ وتغييره..

ولو لم تكن كليوباترا كذلك، لما استطاعت أن تسيطر على ثلاثة حكام رومانيين من أقوى رجالات عصرهم وأذكاهم وأبرعهم على الإطلاق..

نقرأ حياة يوميى القائد الروماني الكبير فنعثر على كليوباترا

ونقرأ حياة قيصر المنتصر دومًا في معاركه فنجد كليوباترا

ونقرأ حياة أنطونيوس في معارك الحرب أو الحب فنعرف كليوباترا

فلنقترب، أكثر، من المرأة/ الملكة..

المرأة السُجّادة :

كليوباترا كانت في الثامنة عشرة من عمرها..

وقيصر كان رجلاً مكتمل الرجولة حين جاء إلى الإسكندرية على إثر اضطرابات كثيرة وقعت في مصر عام ٤٨ قبل الميلاد

وبطليموس – الأب – كان قد رحل وترك وصية أن يخلفه على عرش مصر أكبر ولديه على أن يتزوج أكبر بناته (كليوباترا) ليحكما معًا.

ومع زيادة الاضطرابات طلب الابن من قيصر روما التدخل لتنفيذ الوصية التي كان الأب أوصى فيها بالفعل لقيصر بالتدخل لتنفيذها..

وطلب قيصر الجميع..

بدأ التمرد من بعض القادة المتمردين ضد قيصر، فلم يستطع الابن الوصول إلى قصر القيصر، وبدا أن كليوباترا لا تستطيع أيضًا الذهاب..

هنا، كان على المرأة الذكية أن تحسن التصرف، فبدأ عقل كليوباترا يعمل، فاختفت..

....

في أحد الأيام التالية جاء من يهمس في أذن القيصر: هناك تاجر سجاد يريد إهداءك سجادة شرقية نادرة. وأصر يا مولاي على تسليمها إليك بنفسه.. لا بأس، أمر قيصر بدخول تاجر السجاد..

دخل تاجر طويل القامة يحمل سجادة بديعة التكوين، وما كاد يقترب من القيصر، حتى وضع السجادة أمامه بهدوء، ثم راح يديرها لفتحها، وفجأة.. قفزت من داخل السجادة امرأة على قدر كبير من الفتنة..

واستولت كليوباترا على عقل قيصر، ولكن، ليس بفتنتها فقط، وإنما بتصرفها الجسور، وشخصيتها الآسرة..

وبالفعل، استولت المرأة/ الملكة على عقله، ولم تمض عدة أيام حتى ذهب إلى الجمهور المصري ليعلن إليه تنفيذ الوصية، أن تحكم كليوباترا، ولا بأس من أن يكون معها الأخ، الأصغر..

ودخلت كليوباترا فى علاقة عاطفية مع قيصر، ولكنها كانت علاقة زواج اقترنت بالألوهية.. وهى درجة تعلو عن درجة الزواج البشرى، وحين أنجبت الطفل، أسمته: قيصرون، أو قيصر الصغير..

كانت كليوباترا فى كل علاقاتها مع قيصر حريصة على كونها ملكة مصر، ومن هنا، لم تكن علاقتها بالحكم الرومانى، كما يقال، كانت علاقة عشيقة بعشيقها، وإنما علاقة امرأة صعبة المراس، تعتز بشخصيتها، وبإرادتها، وكان من أول ثمرات هذا اعتراف قيصر الأب ببنوة الابن وراح يصنع للأم/ الزوجة تماثيل ضخمة، ويضع اسمها على العملة..

ومن يدقق فى جدران معبد دندرة يلحظ صورة كليوباترا المتشحة، التى لا تخلو من روح وثابة، وبمصرية معتزة بها، فنحن أمام صورة الإلهة حتحور - إلهة الجمال عند الفراعنة- ومعها ابنها قيصرون مرتديًا الزى الفرعونى، وهو ما يشير إلى أن كليوباترا أرادت الاحتفاظ بحكم مصر خلال وجودها كملكة وليست كامرأة عاشقة أو عشيقة.

لقد تحددت علاقاتها بقيصر على هذا النحو، وهو موقف لم تتجاوزه قط، فيما بعد، حتى التقت بعد مقتل قيصر فى روما؛ بأنطونيوس أو أنطونيو كما نجده فى الأشعار والمسرحيات العربية.

اللؤلؤة والخل :

بعد مقتل قيصر - غدرًا - فى روما جاء أنطونيو إلى الشرق باتفاق مع شريكه الآخر - أكتافيوس - بهدف تنظيم الأمور للإمبراطورية، ومن أفيسوس (أنطاكية الآن قرب سوريا) أرسل أنطونيو إلى كليوباترا التى لم يكن قد رآها حتى ذلك الوقت..

أرسل إليها بهدف التأكد من ولائها للإمبراطورية..

وقصة اللقاء بين كليوباترا وأنطونيو يصفها لنا المؤرخون فى شىء كثير من الإسراف بقصد النيل من صورة الملكة المصرية..

لقد قيل: إن البذخ الشديد الذى أبدته كليوباترا فاق الحد، حتى إنها - أى الملكة المصرية - ذهبت للقاء أنطونيو فى مظاهر لم يشهدها العالم من قبل؛ فولائم كليوباترا للحاكم الرومانى شهدت ألواح السقف التى تشع بالثراء. والعوارض الخشبية التى تختفى تحت طبقة سميكة من الذهب الخالص، والجدران التى صنعت من رخام وعقيق وأبنوس.. إلخ

بل إن البعض يقول: إن كليوباترا فى حفلاتها الباذخة التى كانت تقيمها لأنطونيو حينئذ كانت تشهد الملكة المصرية، بنفسها، وهى تذيب اللؤلؤ فى الخل قبل أن تتناوله. وهو بذخ مبالغ فيه إلى درجة ينفيها الكثير من المؤرخين المنصفين.

ومسألة إذابة اللؤلؤ فى الخل غير علمية بالمرة، ولا تصلح قط للنيل من ملكة مصر، لأنه، ببساطة، لا يمكن إذابة اللؤلؤ فى الخل بالشكل العلمى المعروف.

ومهما يكن من أمر، فإن هذا البذخ الذى أسرفت فيه كليوباترا، وهو ما لا ننكره، كان ينم، عن وعى سياسى وإدارى فى التعامل مع الحاكم الجديد، فكلما أمكن التأثير فى أنطونيو، وتأكيد الحاضرين على عظمة مصر، كانت مصر تحتل منزلة متقدمة فى تقدير هذا الحاكم الرومانى، فما حدث فى ذلك الوقت من احتفال وإسراف كان القصد منه، فيما نرى، بالتعبير المعاصر (لزوم الرسميات) فى ذلك الوقت..

ويبدو أن ذلك الحفل كان من التأثير، مع فتنة كليوباترا واعتدادها، بحيث إن أنطونيو ما لبث أن أظهر رضاءً كاملاً عن الملكة المصرية، وكان ثمار هذا كله، هو فرض كليوباترا العديد من الإجراءات فى ممالكها..

إن كليوباترا لم تقدم أية تنازلات للقادم القوى، بل إن معاصرى أنطونيو يؤكدون أن أنطونيو – الحاكم الرومانى– لم يستطع الحصول من كليوباترا على أموال أو جيوش أو عتاد.. فى وقت كان فى أشد الحاجة إلى مثل هذه الإمدادات فى حروبه الشرقية لتوطيد مكانة الإمبراطورية..

مصر قبل أنطونيو :

الأكثر من هذا، أن الملكة المصرية استطاعت فرض سيطرتها على العديد من الأقطار الآسيوية، فامتدت إمبراطوريتها الآسيوية إلى مناطق شاسعة فى آسيا، والتاريخ يقول لنا: إنها حفرت اسمها ورسمها على البرديات والعملة فى ذلك الوقت.

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك كله: أن كليوباترا أوحت إلى أنطونيو أن يحارب شريكه الآخر فى الحكم، والأكثر من هذا، فإنه على الرغم مما يقال من أنها غدرت بحبيبها فى عرض البحر، فإن المراجع الحديثة تقول إنها لم تغدر به قط، وأن كل ما حدث أنها كانت قد اتفقت مع أنطونيو على خطة للانسحاب.

وقد كان هدفها الرئيسى من هذا الانسحاب الحرص على جيش مصر ورجالها وعتادها؛ حين تأكدت أن مواصلة الحرب سوف تجر إلى الدمار والخراب لإمكانيات بلادها وقوتها الحربية.

لقد كانت مصر أولا وليس أنطونيو

ومع ذلك، فإنها لم تغدر بأنطونيو، وإنما أوقت لمصر..

وحتى بعد هزيمة أنطونيو فى عرض البحر ثم انسحابه وانهياره، فإن التاريخ يقول، إنه على العكس من القائد الرومانى الكبير، فإن ملكة مصر لم تنهر، وإنما أمسكت بمقاليد الأوامر، وأعادت الجيش المصرى كله سالماً.

هل غدرت بأنطونيو؟ :

المؤكد، أن كليوباترا لم تغدر بأنطونيو، وعلى العكس ما يجب أن تفعله ملكة، فإنها استقبلته وقد تخلى عنه جيشه أو هزم، وحاولت - وهو فى قمة انهياره - أن ترفع روحه المعنوية..

ولقد حاولت كثيرًا أن تحرضه على عدوه لينهض من جديد..

وعلى رغم أن أكتافيوس أرسل إليها، فى محنتها، وهزيمة حبيبها، يطلب منها أنها لو قتلت أنطونيو فسوف يتركها فى ملكها، هى وأولادها، فإن كليوباترا رفضت هذا الموقف المشين.

وحتى بعد أن انتحر أنطونيو لوشاية، فإن كليوباترا بعد ذلك لم تستسلم لعدوه قط، كما رفضت تهديده السافر أو وعوده الكاذبة..

وعلى رغم أنها تعرف المصير، فإنها رفضت أن تساوم..

لماذا انتحرت كليوباترا؟ :

ومع أنه من المؤكد أن تهديد أكتافيوس - القائد الرومانى الجديد المنتصر - كان وراء انتحار كليوباترا، فإن مسألة (انتحار) هذه المرأة يظل علامة أكيدة على موقفها الوطنى المشرف.

لقد هددها أكتافيوس فى أولادها، كما هددها بدمار قصورها ورجالها، ومع هذا، لم تستسلم قط..

إن موقف الانتحار الذى أقدمت عليه لم يكن من موقف ضعف قط، وإنما كان من موقف وعى بما سوف تؤول إليه البلاد لو تحكم القائد الجديد فى مصيرها، وراح يهينها فى موكب النصر فى روما..

كانت تعرف أن إهانتها بهذا الشكل، ووسط شماتة الرومان الذين كانوا يكرهون المرأة المصرية.. معناه ضياع لكرامة مصر.

وكانت تعرف أن الطريق الآخر، الذى يبتعد عن طريق الإهانة والتجريح لمصر هو طريق الموت لها..

لم تختر أن تعيش مهانة..

واختارت الطريق الآخر..